الشيخ إسماعيل الصفائحي

دراسة في مواقفه وآثاره (1853 – 1918) م

الدكتور عليان الجالودي

جامعة آل البيت – الأردن

تمهيد

ساهمت حركة الجامعة الإسلامية (Pan- Islamism) التي ارتبطت منذ انطلاقتها في ثمانينات القرن التاسع عشر بشخصية المصلح الديني جمال الدين الأفغاني (1838–1897م) والسلطان عبد الحميد الثاني في إيقاظ الوعي الإسلامي. وتعزيز حركة الإصلاح الإسلامية. ولعله من نافلة القول التأكيد أن الإرث التاريخي المتمثل بالمرجعية الإسلامية التي تمثل القاسم المشترك الذي تلتقي حوله معظم القوميات التي تتألف منها الدولة العثمانية. جعل الإسلام المرجعية الفكرية لرواد الحركة الإصلاحية الإسلامية في أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر. واتخذت الحركة الإسلامية سمة تصفية العقيدة من شوائب البدع والخرافات والعودة إلى بساطة الإسلام الأولى. من هنا جاءت حركة الجامعة الإسلامية التي تعني في مفهومها العام "الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي. إذ ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم إلى بعض. موحد لشعورهم. دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروتها كدين الإسلام"[1]

---

[1] انظر تعليقات شكيب أرسلان على كتاب لو ثرب، ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، تونس، ط3 ، 2ج، 1971م، ج1 287–288. وللمزيد من التفاصيل انظر: رفيق العظم، الجامعة العثمانية والعصبية التركية، جمع غسان العظم، مطبعة المنار، القاهرة، 1344هـ، الجامعة الإسلامية وأوروبا. دار الثقافة العربية، القاهرة، 1981م. شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم=

ومما ساعد على نجاح دعوة الجامعة الإسلامية تبنّي السلطان عبد الحميد الثاني لها، بهدف توحيد مشاعر المسلمين وعواطفهم حول دولة الخلافة والوقوف في وجه التيارات السياسية المناوئة له، عدا سقوط العديد من الأقطار الإسلامية في قبضة الاستعمار الأوربي، وتهديده للباقي منها[2].

ولم يكن مغرب العالم الإسلامي بمعزل عن التيارات الفكرية للحركة الإصلاحية المتنامية في مشرق العالم الإسلامي، لعوامل متعددة في مقدمتها خضوع أقطاره المبكر للاستعمار الأوروبي (الاحتلال الفرنسي للجزائر، 1830 وتونس 1881م)، وتبلور الحركة الإصلاحية في وقت مبكر خصوصاً في تونس على يد المشير أحمد باي (1837–1855م) والوزير خير الدين التونسي خلال فترة توليه الوزارة (1873–1877م) التي تعد من أقدم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي بالرغم من اقتصارها، ومحدودية تأثيرها على القطر التونسي، ثم حركة الإصلاح الثقافية التي تمثلت بإصلاح التعليم في جامع الزيتونة، إضافة إلى دور النخب الثقافية وفي مقدمتهم أحمد فارس الشدياق (1802–1887م) ومحمد بيرم الخامس والعديد من رواد الحركة الإصلاحية التي

= غيرهم، المركز السلفي للكتاب، القاهرة، 1981م، منير موسى، الفكر العربي الحديث، دار الحقيقة، بيروت، 1973م. محمد ضياء الدين الريس، الإسلام والخلافة في العصر الحديث، منشورات العصر الحديث، 1973م. برومیو وايت، سياسة الأتراك والخلافة، تعريب : محمد صفابك، مطبعة العدل، إستانبول 1331هـ. نصر الدين عبد الحميد نصر، مصر وحركة الجامعة الإسلامية (1882–1914م) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م. هاملتون جب، الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة كامل سليمان، بيروت، 1954م.

2 المراكشي، محمد صالح : تفكير رشيد رضا من خلال مجلة المنار (1898–1935م) الدار التونسية للنشر، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص82 وما يليها. الشواشي، سليمان، الجامعة الإسلامية في نظر كل من جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، تونس ع3–4 ديسمبر 1991م، ص112، وما يليها. التليلي العجيلي، السلطة الاستعمارية والنخبة الدينية في البلاد التونسية (1881–1918م) حوليات الجامعة التونسية ، ع39، 1995م، ص331–332. وللمزيد من التفاصيل انظر: مصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمه عن التركية: كمال خوجة، دار السلام للنشر والتوزيع، ط4، 1985م. وتكن، عبد الحميد، ظل الله على الأرض، ترجمة راسم رشدي، القاهرة، 1950م.

تجلت أفكارهم من خلال صحيفة الرائد التونسي التي صدر العدد الأول منها في 23 تموز 1860م. وتعد بذلك من أقدم الصحف العربية التي صدرت في تونس[3].

وتأثرت تونس كغيرها من الأقطار الإسلامية بحركة الجامعة الإسلامية. من خلال الدعاة الذين تخرجوا في مدرسة الوعظ والإرشاد التي أسسها السلطان عبد الحميد الثاني في الأستانة. ووصل بعضهم إلى البلاد التونسية. ووصول الجرائد العثمانية إلى تونس. ووجود عدد من المثقفين التونسيين من أصل عثماني. واتصال المثقفين التونسيين بأفكار الجامعة الإسلامية من خلال رحلاتهم إلى المشرق. وخاصة إسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية [4].

ولعل من أبرز مظاهر رواج أفكار الجامعة الإسلامية في تونس. انتماء عدد من التونسيين إلى عضوية جمعية العروة الوثقى. ووصول مجلتها "العروة الوثقى" إلى أيدي الوطنيين. والصدى الواسع الذي لقيته هناك. والذي شجع محمد عبده (1849–1905م) تلميذ الأفغاني وحامل لوائها إلى جانبه على زيارة تونس مرتين. الأولى خلال عامي 1884–1885م. والثانية سنة 1903م. والحفاوة البالغة التي استقبله بها قبل الاصلاحيون التونسيّون[5].

واصطدمت الحركة الإصلاحية التونسية بالسياسة الاستعمارية الفرنسية. الرامية لفرض السيطرة على المؤسسات التعليمية والطرق الصوفية. وخصوصاً جامع الزيتونة. من خلال تعيين مجالس التعليم والتدريس فيه من الموالين لها. وضرورة الحصول على ترخيص مسبق من سلطات

---

3 الجنحاني، الحبيب. الحركة الإصلاحية في تونس، حوليات الجامعة التونسية ع6، 1969، ص111–143.

4 العجيلي، السلطة الاستعمارية والنخبة التونسية، ص334–335.

5 الجنحاني. الحركة الإصلاحية التونسية، ص150–153، وللمزيد من التفصيل عن هذه الزيارة انظر: المنصف الشنوفي، مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية، ع3، 1966، ص71–102، وانظر كذلك للباحث نفسه علاقة رشيد رضا مع التونسيين (1898–1935م)، حوليات الجامعة التونسية . ع4، 1977م، ص121–153.

الحماية لمن يتصدى للخطط الدينية والتعليمية [6]. كما استمر تيار التنافس والصراع بين رجال الدين المحافظين والفئات الممالئة لسلطات الحماية، مع فئات المجددين، والتقت مصالح فرنسا الاستعمارية مع مصالح المحافظين، فكوفئوا بالامتيازات والوظائف، مقابل ذلك حرم المناوئون والمجددون، و تعرضوا للحرمان والعزل من الوظائف العامة ومن الترقي في السلم التعليمي، في جامع الزيتونة [7] مما حدا بهم إلى مغادرة البلاد التونسية. وفي مقدمتهم الشيخ صالح الشريف التونسي (1869–1920م)الذي استقال من التدريس في جامع الزيتونة سنة 1906م وغادرها إلى المشرق ثم إسطنبول ولحق به عدد من الوطنيين التونسيين في مقدمتهم إسماعيل أفندي الصفائحي. والأخوان علي (1876–1918م) ومحمد باش حانبه

(ت 1920م) ومحمد الخضر حسين (1873–1958م)[8].

1- التعريف بإسماعيل الصفائحي (1269هـ / 1853م- 1337هـ / 1918م):

هو إسماعيل بن "محمد حمدة " بن حسن بن الحاج إسماعيل بن محمد البوسنوي الذي يعود في أصوله كما يتضح من اسمه إلى البوسنة . قدم جده محمد البوشناقي إلى تونس، في أواسط القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وكان جده موظفا للعمل في سلك الإدارة العثمانية، وأنجب ولدين أحدهما إسماعيل الذي صاهر عائلة الكفيف التونسية وهي من العائلات التي تنتمي في نسبها إلى الأسرة الحفصية التي حكمت تونس فيما مضى. وأعقب إسماعيل ولده حسن

---

6 العياشي، مختار. "البيئة الزيتونية، (1910–1945م) مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التونسية، تعريب حمادي الساحلي، تونس، دار التركي للنشر، 1990م، ص197 ما يليها. محمد العزيز عاشور، التعليم الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، ع41، 1986، ص5–34.

7 الساحلي، حمادي. نشاط التونسيين في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، المجلة التاريخية المغربية، ع33–43، 1984، ص182–192، العجيلي، السلطة الاستعمارية والنخبة المثقفة، ص354–356. وانظر للباحث نفسه، مواجهة المحافظين للحركة الإصلاحية بتونس (1895–1914م) مجلة روافد، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، ع2، 1997م، ص 173 وما يليها.

8العجيلي، السلطة الاستعمارية والنخبة المثقفة، ص354–356. الساحلي نشاط التونسيين في المهجر، ص182–192. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998م، ج5، ص518–520.

الذي غلبت عليه حرفته. فصار يدعوه بالصفائحي. وأعقب حسن ثلاثة من الأولاد الذكور من زوجته ابنة حموده بوغازلي، الذي ينتسب إلى إحدى الأسر التركية المتوطنة في تونس.

ومن الواضح أن محمد والد صاحب الترجمة نال حظا من التعليم الأولي في الكتاتيب مما حدا به أن يوجه ولده إسماعيل المولود ليلة الاثنين 22 ربيع الآخر سنة 1269هـ /1853م لتلقي المعارف الأولية العلمية في الكتاب ابتداء فتولى تأديبه الشيخ صالح الرياحي. ثم التحق بسلك المتعلمين في جامع الزيتونة منذ سنة 1285هـ / 1868م. ونهل العلم على يد عدد من الشيوخ من بينهم شيخ الجماعة سالم بوحاجب مفتي المالكية. والشاذلي بن القاضي. ومحمد بيرم الخامس. ومصطفى رضوان.

وحصل على شهادة التطويع سنة 1297هـ /1879م. مما أهله لممارسة مهنة التدريس فتولى تدريس أولاد الوزير مصطفى الخزندار إلى جانب متابعة تحصيله العلمي في جامع الزيتونة. وتقلد ابتداء من سنة 1298هـ /1880م وظيفة النيابة عمن يتخلف عن التدريس من أساتذة المدرسة الصادقية ثم مدرسا أصيلا ابتداء من سنة 1309هـ / 1891م وعمل منذ سنة 1302هـ /1884م موثقا في جمعية الأحباس (الأوقاف) وشاهدا على أوقاف الديوان في المحكمة الشرعية العليا. ومنذ سنة 1302هـ /1884م عين مدرسا من الصنف الثاني في جامع الزيتونة بعد أن اجتاز بنجاح مناظرة التدريس.

وفي العاشر من رجب سنة 1312هـ /1893م وقع اختيار مدير المعارف التونسي المستعرب الفرنسي مشويل (Machuel) عليه لإدارة المدرسة العصفورية التي أنشأها لتخريج المعلمين. وفي السنة نفسها انتقل إلي الرتبة الأولى من التدريس بجامع الزيتونة أستاذا من الصنف الأول. وصاحب كرسي مما أهله للارتقاء بالوظائف. حيث أسندت إليه الحكومة التونسية ولاية القضاء

الحنفي في شهر صفر سنة 1315هـ /1896م مما استدعى تخليه عن وظيفة التدريس. كما أسندت إليه في سنة 1323هـ /1904م عضوية لجنة إصلاح فهارس الكتب بجامع الزيتونة. وجمعت هذه اللجنة نخبة من شيوخ العلم من بينهم محمد بن الخوجة. ويبدو أن انتماءه لعائلات الحاضرة التونسية (العاصمة) المحظوظة، إلى جانب مذهبه الحنفي وأصوله غير التونسية فتحت بلا شك الطريق أمامه للترقي لهذه الوظائف.

ولبث الصفائحي في منصب القضاء الحنفي حتى أواخر شعبان سنة 1324هـ /1905م ثم عزم على مغادرة تونس بسرية تامة. فقدم إجازة طويلة متذرعا بنية أداء فريضة الحج. والإقامة الطويلة في البقاع المقدسة. وغادر تونس سنة 1906م. غير أنه لبث في دمشق. ولم يمض ما أزمع عليه من أداء الفريضة. ويظهر أنه التقى هناك بإخوانه الجزائريين والتونسيين الذين سبقوه إلى دمشق. وفي مقدمتهم زميله في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي صالح الشريف. وقرر الذهاب إلى الأستانة بتأثير الأمير علي بن عبد القادر الجزائري. والشيخ أبي الهدى الصيادي (1849مم1909م). ومن دمشق بعث باستقالته من منصب القضاء. وغادرها بعد سنة 1907م متوجهاً إلى الأستانة وهناك أسندت إليه الحكومة العثمانية وظيفة التدريس في جامع السلطان أحمد سنة 1908م. ثم عين مدرساً بمدرسة الوعظ والإرشاد التي أنشئت زمن السلطان عبد الحميد الثاني بهدف تخريج جيل من الخطباء يتولون الخطابة الشرعية والإرشاد في جوامع العاصمة والولايات[9].

---

[9] راجع ترجمته في محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين 5ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1984م. ج3، ص233–235، محمد بوذينه، مشاهير التونسيين ط2، (د. ن.) 1992م، محمد بن الخوجة صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج علي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص193، 468، محمد الشعبوني، موقف البلدان المغاربية من مسألة الخلافة (1914–1926م) جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1991–1992م، ص52.

BARDIN, P. ALGeriens Et Tunisiens Dans L'Empire Ottoman (1848-1914) Editions Du Cnts. France, 1979, p.191-197

وانتهى به المطاف في إسطنبول حيث توفي رحمه الله في شهر ربيع الأول من عام 1337هـ /1918م بعد هدنة الحرب العالمية الأولى بقليل. ويشار من بعده لولده الوحيد محمد الذي عاش في إسطنبول وتولى التدريس في مدرسة الخطباء وتدريس الحديث في جامع أم السلطان. وله مصنف بعنوان "الفصول المستطابة في أصول الخطابة"[10]

2- نشاط الصفائحي السياسي خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918م):

رافق اندلاع الحرب العالمية الأولى. محاولة سلطات الحماية الفرنسية إحكام قبضتها على البلاد التونسية. وملاحقة الوطنيين وتشريدهم وإعلان الأحكام العرفية. وتعطيل الصحف والمجلات مما اضطر الكثير منهم إلى مغادرة تونس. وتزامنت هذه الأوضاع الجديدة مع الدعاية الواسعة التي قام بها الاتحاديون وحلفاؤهم الألمان. في محاولة لإثارة الشعوب الإسلامية بإعلان فكرة الجهاد[11] التي أعلنها السلطان محمد رشاد الخامس (1909-1918م) سنة 1914م بهدف الالتفاف حول دولة الخلافة الإسلامية. وتأجيج مشاعر المسلمين الخاضعين لسلطة الدولتين

---

10 محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، ص235. أحمد العباسي، الشيخان المجاهدان صالح الشريف وإسماعيل الصفائحي (د.ن.)، ط1، 1987م، ص ص 81-99. ويبدو أن جميع من ترجم له استند على ما كتب عنه في مجلة البدر التونسية، م2، ج1-2، ص ص 26-33. ج8-9 ، ص ص 498-499.

11 أول من أثارها السياسي والمستشرق الألماني البارون ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim) في خريف سنة 1914م، وكان يعمل آنذاك في وزارة الخارجية الألمانية / قسم الشؤون الشرقية في تقريره حول "إثارة المناطق الإسلامية ضد أعدائنا". انظر: ورنير أنده، الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحافي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة6 ، ع 52، ديسمبر 1957، ص50. وحول دور شكيب أرسلان انظر: الصفحات 50-53. وصنفت الكثير من الأدبيات في هذه الفترة في جميع أنحاء العالم الإسلامي. حول دعوة الجهاد. أنظر على سبيل المثال لا الحصر: محمد حبيب العبيدي، حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام، بيروت، المطبعة العلمية، 1916م، نعيم زعرور، خلافت، جنيف، طبعة حجرية (د. ت.)، مصطفى ذهني زاده، إسلامي خلافت، القسطنطينية، مطبعة أبو الضياء 1327هـ / 1909م، وانظر القائمة البلوغرافية الموسعة بالأدبيات المتصلة بهذا الجانب. نعيم القرشي، دراسة في مراجع الوحدة الإسلامية في القرن التاسع عشر، مجلة المنتقى، مركز الدراسات والتوثيق الإسلامي، لندن، ع2، 1983م، ص ص 32-46.

الاستعماريتين إنكلترا وفرنسا[12] بفتح عدة جبهات على الحلفاء لإجبارهم على تشتيت جهودهم العسكرية وإثارة المسلمين ضدهم وخاصة في الهند ومصر وشمال أفريقيا. وقد ساعدت هجرة محمد بيرم الخامس وعبد العزيز جاويش. ومحمد الخضر حسين، والمكي بن عزوز وصالح الشريف. وإسماعيل الصفائحي. وعبد العزيز الثعالبي. والأخوين علي ومحمد باش حانبه على بلورة السياسة الإسلامية العثمانية نحو شمال إفريقيا، وهاجر هؤلاء في أوقات متفاوتة إلى إستانبول وانتقل بعضهم إلى ألمانيا إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى في صيف عام 1914م. وعمل هؤلاء في إطار الجامعة الإسلامية على توحيد الجهود لتحرير المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي[13]. كما تزعم الشيخ صالح الشريف والشيخ إسماعيل الصفائحي عددا من الوطنيين في إعلان جمهورية شمال أفريقيا بالتحالف مع الدولة العثمانية وألمانيا. واعترفت بها الدولتان الحليفتان إلى جانب النمسا. واشترطت ألمانيا للاعتراف بهذه الجمهورية إعلان الثورة في أقطار المغرب العربي ضد سلطات الاحتلال الفرنسي.[14]

واتخذ نشاط الوطنيين التونسيين مظاهر متعددة من بينها تأسيس الروابط والأندية والجمعيات وإصدار الصحف والمجلات والكتب والنشرات الدعائية. والمساهمة في المؤتمرات والندوات الدولية. ومن بينها المؤتمر الثالث للقوميات المنعقد في لوزان في شهر حزيران 1916م. والمؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد في استوكهلم في صيف عام 1917م. كما عقد في العام نفسه مؤتمر الشعوب الإسلامية الذي عرف بتجمع القوى الإسلامية الثورية الذي عقد في باكو. واشترك في

---

12 أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكتاب العربي،ص ص 32-33. التليلي العجيلي، السياسة الدينية لفرنسا على الجبهة تجاه التونسيين المجندين في الحرب العالمية الأولى، حوليات الجامعة التونسية ع32، 1991م. ص ص 173-176.

13 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 520. وأصدر محمد باش حانبه في جنيف مجلة باسم مجلة المغرب (Revue du Maghreb) باللغة الفرنسية، تواتر صدورها ما بين أعوام (1916-1918م)، انده، الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا، ص 53 . العباسي، الشيخان المجاهدان، ص ص 59-61.

14 للمزيد من التفاصيل، انظر: أحمد العباسي، الشيخان المجاهدان، ص ص 47-52.

المؤتمرين بعض الوطنيين العرب المقيمين في ألمانيا. ومثل شمال أفريقيا فيه الشيخ إسماعيل الصفائحي والشيخ صالح الشريف.[15] وشارك صالح الشريف باسم لجنة استقلال تونس والجزائر في المؤتمر الإسلامي المنعقد بجنيف. ووجهت الهيئة الجزائرية التونسية التي يرأسها محمد باش حانبه مذكرة إلى مؤتمر السلام المقرر عقده في فرساي (يناير) 1919م للمطالبة باستقلال بلاد المغرب العربي . ويبدو أن الشيخين الشريف والصفائحي قدما مذكرة مطولة أطلق عليها اسم "بيان توحش فرنسا في القطر التونسي الجزائري" باللغتين العربية والفرنسية. كما أرسلا برقية للرئيس الأمريكي ودرو ولسون. ورداً على ذلك أصدرت فرنسا أحكاماً غيابية تتضمن حجز ممتلكاتهما وتجريدهما من حقوق المواطنة[16].

ويمكننا إجمال نشاط الشيخ إسماعيل الصفائحي خلال هذه الفترة بمظهرين أساسيين:

المظهر الأول: النشاط العملي المتمثل بتأسيس الروابط والجمعيات

والتنقل بين إسطنبول وبرلين ولوزان في سويسرا للمساهمة في إلقاء الخطب والمحاضرات في الألمان لتعريفهم بحقوق الشعوب المضطهدة في تونس والجزائر وليبيا ومراكش. وإشاعة الحماس بين الجنود المغاربة -والأسرى منهم على وجه الخصوص- على جبهات القتال. وفي معسكرات الأسرى بهدف بث الحماس والوعي. وضرورة الالتفاف حول رابطة الخلافة العثمانية والوقوف بوجه قوات الحلفاء. والملاحظ بصورة عامة اقتران نشاط الشيخ الصفائحي بالشيخ الشريف[17] وأول نشاط مشترك بين الشيخين يعود إلى سنة 1910م عندما أسسا معاً جمعية الأخوة الجزائرية

15 انده، الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحافي، ص 61. أحمد العباسي الشيخان المجاهدان، ص ص 56-57.

16 حمادي الساحلي، نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، المجلة التاريخية المغربية، السنة 11، ع33-34 ، جوان، 1984م، ص 186-188. وانظر النص العربي لهذا البيان لدى العباسي: الشيخان المجاهدان، ص 103-127.

17 للمزيد حول الشيخ صالح الشريف ونشاطه أنظر : محمد الفاضل بن عاشور، الشيخ صالح الشريف، المجلة الزيتونية، م8، ابريل 1954، 1953، ص74-78، 118-125، عبد الجليل التميمي، من أعلامنا المنسيين، الشيخ صالح الشريف التونسي، المجلة التاريخية المغربية، ع23-24، نوفمبر 1981م، ص345-362، بيترهاينة : صالح الشريف التونسي، حوليات الجامعة التونسية، ع24، 1985، ص101-110، حمادي الساحلي، نشاط الوطنيين التونسيين ص184-186.

نشاط مشترك بين الشيخين يعود إلى سنة 1910م عندما أسس معاً جمعية الأخوة الجزائرية التونسية في إستانبول. وكان لها فرع في دمشق نشيط بين المهاجرين الذين كان أغلبهم من الجزائر. ولها فروع أخرى في بلاد الشام والحجاز لاسيما فرع المدينة المنورة [18]. ولعلها الجمعية التي أشار لها الماجري. باسم الجمعية الخيرية الإسلامية. وكان من أعضائها إلى جانب الصفائحي والشريف. الشيخ عبد العزيز جاويش والمكي بن عزوز. وكان هدفها إبراز وترويج فكرة الجامعة الإسلامية [19].

وإثر اندلاع الحرب كلفته حكومة الاتحاديين إلى جانب الشيخ صالح الشريف ومحمد الخضر حسين بالقيام بمهمة خاصة تتمثل بالاتصال بأسرى الحرب المغاربة. وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة. وترسل عن طريق الغواصات إلى طرابلس الغرب هذا الدور قام به سليمان الباروني باشا سنة 1916. وكان مقرراً أن يرأسها علي باش حانبه بنفسه ليكون مندوباً عن السلطان العثماني لتحرير مسلمي الشمال الأفريقي من الاستعمار الفرنسي[20].

وانتقل الصفائحي بطلب من الحكومة التركية إلى برلين بمعية صالح الشريف والأمير علي باشا بن الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ أحمد الكزبري من دمشق سنة 1916م. وشكل الصفائحي والشريف معاً لجنة استقلال تونس والجزائر" للدفاع عن قضايا الشعوب المغربية وتعريف الرأي العام العالمي وخاصة الألماني. بحقيقة أوضاع المغرب العربي[21]. وضمت هذه اللجنة

---

18 أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج5. ص602–603.

19 عبد الكريم الماجري. دور ومساهمة المغاربة في الحركات الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي قبيل الحرب العالمية الأولى. رسالة ماجستير غير منشورة . تونس كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس. 1977، ص90 وما يليها، الشعوبي موقف البلدان المغاربية. ص52–53.

20 علال الفاسي. الحركات الاستقلالية في المغرب. ص45. حمادي الساحلي. نشاط الوطنيين. ص184. ويذكر هابنة أن صالح الشريف كان على علاقة بأنصار حركة تركيا الفتاة وبالأخص أنور باشا كما كان شخصية موثوقة من الأمير علي بن عبد القادر الجزائري في دمشق وإن علاقته مع أسرة عبد القادر هي التي أتت به إلى برلين. فقد كان بصحبة علي باشا الذي وجهت إليه دعوة لزيارة ألمانيا. غير أن الشريف استقل بنشاطه لاحقا عن علي باشا. هابنه. صالح الشريف ص102–103.

21 حمادي الساحلي. نشاط الوطنيين. ص 184–185.

المهاجرين من شمال إفريقيا. وكانت مطالبها الأساسية تحرير تونس والجزائر من سيطرة الاستعمار الفرنسي[22].

ومع أن ما أتيح لنا الاطلاع عليه حتى الآن لا يعطي تفصيلات واسعة عن نشاط الصفائحي في برلين، وعلى جبهات القتال الغربية. إلا أن ارتباط نشاطه السياسي في هذه المرحلة بنشاط صالح الشريف يشجعنا على الافتراض أن هذا النشاط أخذ عدة وجوه استنادا إلى ما كتبه بيتر هاينة، عن نشاط صالح الشريف. وهو :

أولا: الانتقال إلى الجبهة الغربية الألمانية بهدف الاتصال بالجنود المسلمين الأسرى في الجيش الفرنسي خاصة التونسيين لحثهم على الانتقال إلى صفوف الجيش التركي وحليفتهم ألمانيا، وتنفيذا لذلك قاما بكتابة نشرات دعائية طبعت في المطبعة الإمبراطورية. وألقيت على خط جبهة القتال. وكان مضمونها توعية المسلمين ضمن جيوش الحلفاء لطبيعة الاحتلال الأجنبي لبلادهم، وحثهم على ضرورة الجهاد إلى جانب الخليفة العثماني الذي أعلن الجهاد على إنكلترا وفرنسا وروسيا، وأن ألمانيا والنمسا تحاربان في صف الخليفة. وترتب على هذه الدعاية انتقال أعداد كبيرة من هؤلاء الجنود من الجيش الفرنسي إلى الجبهة الألمانية ليقاتلوا أعداء الإسلام والخليفة [23].

ثانيا: الدعاية في معسكر الأسرى المسلمين المسمى بالهلال (Halbmoud Tager)[24]. الذي جمع فيه الألمان حوالي (800) مسلم. بهدف تحريض الأسرى المغاربة للقتال ضد الفرنسيين

---

22 هاينة، صالح الشريف، ص109. وعن الدعاية التونسية المضادة انظر: التليلي العجيلي، السياسة الدينية لفرنسا على الجبهة، ص 177–186، 189 وما يليها.

23 هاينة، (ن.م) ص103–104.

24 أقيم هذا المعسكر في مدينة فزدروف (Wansdroff) على بعد ثلاثين كم تقريبا من برلين، وبني فيه مسجد لتمكين الأسرى المسلمين من أداء شعائرهم الدينية في نفس الظروف التي يؤدون بها الصلاة في بلدانهم، وتم افتتاحه في الليلة الأولى من شهر رمضان سنة 1916م، بحضور سفير الدولة العثمانية في ألمانيا، وألقى محمد الخضر حسين كلمة في هذه المناسبة. التليلي العجيلي، السياسة الدينية لفرنسا على الجبهة. ص 189–190.

ويبدو أن الصفائحي والشريف أصدرا في هذه المرحلة نشرة توزع بين الأسرى باسم الجهاد[25].

ثالثاً: الدعاية للعالم الإسلامي. لدى الرأي العام الألماني. وفي هذه المرحلة أصدر الرجلان عملاً مشتركاً في هذا المجال باسم تونس والجزائر نشرت النسخة الألمانية منه في برلين سنة 1916م. والنسخة الفرنسية في لوزان سنة 1917م [26]. وألف صالح الشريف باللغة العربية كتاب "حقيقة الجهاد" ونقله إلى الألمانية مترجم البلاط الإمبراطوري كارل شابنجر (Karl Schabinger) وعلق عليه بكلمة ختامية المستشرق الألماني مارتين هارتمان (Martin Hartmann)[27].

المظهر الثاني: النشاط الفكري المتمثل بتأليف الكتب والنشريات الدعائية:

وثمة قضية منهجية أساسية تثار هنا ابتداءً وهي الصعوبة المتأتية من تحديد الأعمال الفكرية المشتركة والمنفصلة بين شيخنا إسماعيل الصفائحي وزميله صالح الشريف. وذلك لعدة أسباب في مقدمتها: تداخل مجالات نشاط الرجلين. وتماثل النشاط السياسي والفكري الذي قاما به. عدا أن جل هذه الأعمال يجمعها قواسم مشتركة واحدة وهي فضح أساليب الدول الاستعمارية خاصة فرنسا. ودعوة المسلمين للالتفاف حول دولة الخلافة. وهي في جلها نشريات صغيرة الحجم كتبت في إطار الدعاية. ومما يزيد الأمر صعوبة أنها ترجمت إلى لغات متعددة منها الإنكليزية والألمانية والفرنسية والتركية وبمسميات مختلفة. ولعل الاهتمام الذي حظي به صالح الشريف على حساب زميله الصفائحي أعطى مجالاً للذين كتبوا عنه لأن ينسبوا إليه الكثير من هذه المصنفات دون زميله الصفائحي الذي لم ينل من الاهتمام ما ناله صالح الشريف. وربما لو

---

25 أبو القاسم محمد كرو، أعلامنا محمد الخضر حسين. تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 1973م، ص 24 وما يليها. هاينة، (ن.م) ص106. وصدر العدد الأول منها في شهر مارس 1915م بلغات شرقية متعددة منها اللغة العربية لتوزع على الأسرى، وطبع منها 15 ألف نسخة. انده، الوطنيون العرب، ص 59–60.

26 حمادي الساحلي، نشاط الوطنيين التونسيين، ص184–185.

27 هاينة، صالح الشريف، ص101.

أمكن مستقبلا التصدي لجمع التراث الفكري المنسوب للرجلين وبمختلف اللغات لأمكن تحديد هوية كل منهما بشكل أكثر دقة مما هو عليه الآن.

ومن خلال تتبع النشاط السياسي، وما أمكننا الإطلاع عليه من آثار فكرية لكلا الرجلين. يلاحظ بالرغم من تكوينهم الزيتوني المشترك، وتماثل النشاط السياسي لهما في الأستانة وبرلين ولوزان. والهدف الواحد الذي يلتقيان حوله. وهو الالتفاف حول دولة الخلافة في صراعها مع دول الحلفاء إنكلترا وفرنسا ووعيهما الدقيق-إلى جانب غيرهم من الوطنيين المغاربة- بطبيعة الأخطار التي تمر بها دولة الخلافة الإسلامية. وإدراكهما العميق بأطماع الدول الاستعمارية التوسعية في العالم العربي الإسلامي آنذاك. وهذا ما يفسر حماسهما لدعوة الجهاد. كما عمق لديهما مفهوم وحدة مصير العالم الإسلامي وضرورة وحدته للتصدي لهذه الأخطار الاستعمارية المحدقة به. لأن خروج الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا منتصرتين في الحرب معناه ليس فقط حماية ما تبقى من رقعة العالم الإسلامي. وإنما إنعاش آمالهما وآمال الكثير من الوطنيين العرب والمسلمين بقرب التخلص من الاستعمار الأوروبي البغيض الجاثم على شطر كبير من البلدان الإسلامية.

أقول بالرغم من تماثل هذا النشاط. إلا أن صالح الشريف كان أكثر حماسا للعمل السياسي وأكثر عملية في هذا الجانب من زميله الصفائحي الذي بدا أكثر حذرا وأقل اندفاعا[28] فنرى الشريف يدخل في دمشق في مواجهة فكرية مع الشيخ رشيد رضا. تحول لاحقا إلى مشادة عنيفة بين الرجلين سنة 1326هـ/1907م في جامع دمشق[29]. ونراه في الأستانة يتزعم المهاجرين المغاربة

---

[28] BARDIN,AL Geriens Et Tunisiens.P 191-195

[29] عن الخلاف بين صالح الشريف ورشيد رضا انظر: مجلة المنار م11، ص 908-910، 936-952، م12، ع18، حزيران، 1909م، ص 393-396. م13، ع6، تموز 1910م، ص 419-423. شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا وأخاه أربعين عاما، دمشق، 1937م، ص 147. محمد الفاضل عاشور، تراجم الأعلام، الشيخ صالح الشريف، المجلة الزيتونية، م8، إبريل، 1952م، ص 77-78. المنصف الشنوفي، مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تونس، ص 71-102. علائق رشيد رضا مع التونسيين، ص ص 133-137. بيتر هاينه، قومي من شمال أفريقيا، ص 174.

ويتوسط لدى الباب العالي لتسهيل مهمة إقامتهم في الأراضي العثمانية. ويقوم بنشاط دعائي واسع بين المهاجرين الغاربة لحساب الاتحاديين يساعده على ذلك مقدرته الخطابية البارعة وقدرته في التأثير بمن تمعيه. وما يتمتع به من قدرة على تنظيم المسيرات المؤيدة لسياسة الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا[30]. وبعد هذا كله يتولى مهام دبلوماسية وعسكرية غاية في الدقة من بينها التوسط بين أفراد وشيوخ الجزيرة العربية[31]. كما شارك في مهمة سياسية وعسكرية نظمها الاتحاديون في ليبيا لإثارة الحماس لدى الليبيين للجهاد ضد الغزو الإيطالي لبلادهم[32].

وفي الجانب الفكري يلاحظ أن الشيخ الصفائحي أكثر قدرة وأطول باعا من زميله الشريف في خوض غمار المسائل الفكرية. وأكثر قدرة على التأطير النظري وهذا يتضح من خلال الدراسة للأدبيات المتاحة بين أيدينا. فالأدبيات المنشورة للشيخ الشريف لا تخرج عن كونها متممة لنشاطه السياسي. وهي نشريات دعائية في المقام الأول يدافع فيها عن سياسة الدولة العثمانية. ويركز على فضح أساليب السياسة الاستعمارية الفرنسية في شمال أفريقيا. وهي في جلها كتابات

---

30 حول نشاط صالح الشريف السياسي، انظر: علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط1، 1948م، ص 41–45. ورنير أنده، الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا، ص57–58، 61–62. عبد الجليل التميمي، الشيخ صالح الشريف، ص354–362. هاينه، قومي من شمال أفريقيا، ص173–177. الساحلي، نشاط الوطنيين التونسيين، ص184–190.

31 كان مقررا إيفاد الشيخ الشريف في بعثة وساطة سنة 1333هـ/ 1915م بين الملك عبد العزيز آل سعود ملك نجد، والأمير سعود بن عبد العزيز بن متعب آل الرشيد أمير حائل، بهدف وضع حد للحرب الدائرة بينهما، وتحذير الطرفين من أطماع انكلترا غير أن هذه السفارة لم تتم بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. انظر حولها: محمد الفاضل بن عاشور، تراجم الأعلام، وثيقة تاريخية هامة تتعلق بحياة صالح الشريف، مجلة الزيتونة، م8، إبريل، 1953م، ص ص 118–125.

32 حول دوره في الحرب الطرابلسية وعلاقته بأنور باشا سنة 1911م، انظر: أحمد العباسي، الشيخان المجاهدان، ص 21–52. صالح الخرفي، عمر بن قدور الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، 1984م، ص 30 وما بعدها.

Mohmoud Abdel Moula, Jihadet Colonialisme La Tunis Edition Tiers- Monde, 1987, p.54.

كتبت إما لتوضيح حقيقة الدعوة إلى الجهاد أو الرد على مقالات كتبت في الصحف والمجلات الغربية. أو عرائض احتجاج رفعها إلى عصبة الأمم والرئيس الأمريكي ولسون[33].

وبالمقابل نجد الأدبيات التي ألفها الشيخ الصفائحي وبشكل خاص كتابه "إيقاظ الإخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان" يعالج فيه مسائل فقهية عميقة من مثل مفهوم الخلافة. وإشكالية العلاقة بين الخلافة والسلطنة. ويحاول النفاذ من خلالها إلى طرح رؤية معاصرة لطبيعة العلاقة بين السلطنة العثمانية. والولايات التي تدور في فلكها. والدويلات المستقلة عنها. ورؤيته المستقبلية لصيرورة هذه العلاقة مستقبلا[34].

وفي سياق مناقشته لعلاقة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية. فهو يستعرض علاقتها مع الدول الأوروبية. منذ اللحظة التي بدأت تتوسع فيه على حساب الإمبراطورية البيزنطية. وهزيمتها للأحلاف الأوروبية. وبروز أطماع الدول الأوروبية روسيا. إنكلترا. فرنسا منذ القرن السادس عشر الميلادي. في عرض يتضح فيه إدراكه العميق للأدوار التاريخية التي مرت بها هذه العلاقة من جهة. ثم حقيقة هذه الأطماع التوسعية لكل دولة من هذه الدول[35]. ليصل في النهاية إلى طرح القضية التي يريدها. وهي التفاف المسلمين جميعا أمراء تابعين أو مستقلين. والشعوب الإسلامية كافة حول دعوة الجهاد والمبادرة إلى إعلانها لأنها برأيه هي الوسيلة الوحيدة الممكنة للوقوف في وجه أطماع هذه الدول. واستعادة الأجزاء التي تحتلها هذه الدول المستعمرة من دار الإسلام[36].

---

33 انظر نماذج من هذه النشريات الدعائية. صالح الشريف، شرح دسائس الفرنسيين ضد الإسلام وخليفته، نشرها عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ع23-24، 1981م، ص 354-362. وله أيضا: بيان توحش فرنسا في القطر التونسي والجزائري، نشره عن الأصل الفرنسي مترجما إلى العربية أحمد العباسي. الشيخان المجاهدان، ص 105-127. وله محاضرة ألقيت في دمشق سنة 1915م. أحمد العباسي، المرجع السابق، ص ص 155-168.

34 الصفائحي إيقاظ الإخوان، ص ص 4-51.

35 ن، م، ص 81-118.

36 ن، م، ص 56-158.

والصفائحي كما سنرى تاليا على عكس زميله الشريف يرى إنكلترا أشد الدول الأوروبية عداء للدولة العثمانية وللإسلام والمسلمين[37].

المؤلفات المنسوبة للصفائحي والشريف :

1- إسماعيل الصفائحي:

أ- إيقاظ الإخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان. كتب باللغة العربية. وطبع في المطبعة العسكرية في إسطنبول. سنة 1333هـ /1914م. وتاريخ الانتهاء من تصنيفه كما هو مثبت في الافتتاحية 13 ذي القعدة سنة 1333هـ / الموافق 9 أيلول 1331مالية / 1914م.[38]

ب- صالح الشريف التونسي:

1- حقيقة الجهاد ألفه صالح الشريف باللغة العربية. ونقل كما أسلفنا إلى اللغة الألمانية مع تعليقات كتبها مترجم البلاط الإمبراطوري المستشرق الألماني هارتمان. أما مترجم الكتاب فهو كارل شابنجر (Schabinger) الذي عمل سابقا مترجما في القنصلية الألمانية في طنجة. ورافق صالح الشريف إلى الجبهة الغربية[39]. ونشرت النسخة الألمانية في برلين سنة 1915م. كما ترجم إلى اللغة الفرنسية ونشر في بيرن سنة 1916م.

2- حجج دامغة حول وجوب خروج الفرنسيين من تونس. والنسخة الفرنسية منه محفوظة في مدرسة اللغات الشرقية في باريس.

3- دعوة البشرية إلى الحقيقة. طبع في برلين سنة 1918م.[40]

---

37 ن، م،ص 83-118

38 ذكره إلياس سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة العربية، 2ج، الإسكندرية، (د.ط) 1980م، ج2، ص 1209. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين، التونسيين. ج2، ص235. وأشار التميمي لهذا الكتاب بتسمية غير دقيقة (إيقاف الأخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه الحال). انظر مقالته صالح الشريف، ص 345. وأشار له حمادي الساحلي بعنوان " يقظة أخواننا ضد مؤامرات العدو " طبع في إستانبول سنة 1916، ويعكف الباحث على تحقيقه وإعداده للنشر قريبا .

39 انده، الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي، ص ص ص 57-58.

40 لعله كتاب الحقائق الباهرة في سر طريق الدنيا والآخرة في 32 صفحة أشارت له فهارس المطبوعات العربية بالمكتبة البلدية في إستانبول . التميمي ، صالح الشريف، ص 346. وللمزيد من التفاصيل حول صالح الشريف ودوره الجهادي. انظر: أحمد العباسي، الشيخان المجاهدان، ص ص 13-67. محمد

4- دعوة إلى الحق والعدل. طبع في استوكهلم 1919م.

5- رسالة مفتوحة إلى مولاي يوسف سلطان المغرب الأقصى. محفوظة في دار الكتب الوطنية في باريس.

6- شرح دسائس الفرنسيين ضد الإسلام وخليفته. إستانبول. 1916. 1921م.[41]

ج-المؤلفات المشتركة بين الصفائحي والشريف.

1- تونس والجزائر. صدرت النسخة الألمانية في برلين سنة 1916م. والنسخة الفرنسية في لوزان سنة 1917م[42]. ولعله الكتاب الذي أشار له أبو القاسم سعد الله بعنوان " آلام الشعوب المضطهدة تونس والجزائر" المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس رقم (8Lk 8 2282) في 32 صفحة. ونشر الأصل الفرنسي مع ترجمته إلى اللغة العربية في كتاب ألفه أحمد العباسي بعنوان الشيخان المجاهدان صالح الشريف وإسماعيل الصفائحي طبع سنة 1987م.[43]

2- شمال أفريقيا .[44]

آراء الصفائحي السياسية والفكرية:

من الواضح تماما أن الشيخ الصفائحي كتب مؤلفاته التي نلمس منها آراءه الفكرية خصوصا. كتاب إيقاظ الإخوان في إطار الدعاية التي نظمتها الدولة العثمانية بالتعاون مع حليفتها ألمانيا القيصرية ضد الحلفاء في الحرب العالمية الأولى والتي تهدف إلى أمرين:

= الهادي الحسيني. الشيخ صالح الشريف العالم الجزائري المجهول، جريدة الشعب الجزائرية، ع (7023)، السبت 17 مارس 1986م، عبد الجليل التميمي، الشيخ صالح الشريف، المجلة التاريخية المغربية ص ص 345-362. محمد بن عاشور، الشيخ صالح الشريف، المجلة الزيتونية، م8، إبريل، 1952م، ص 74-125.

41 حمادي الساحلي. نشاط الوطنيين، ص 186. ونشر عبد الجليل التميمي هذا الكتاب ضمن مقالته عن صالح الشريف، المجلة التاريخية المغربية، ص 354-362.

42 الساحلي . نشاط الوطنيين، ص 186.

43 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 217. ويشير الأستاذ سعد الله أنه ترجم إلى العربية، أحمد العباسي، الشيخان المجاهدان، ص 103-152.

44 أشار له الأستاذ سعد الله، ولم يشر إلى لغة الكتاب التي كتب بها، ومكان وجوده، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5، ص 217.

الأول: توحيد جهود المسلمين والتفافهم حول الدولة العثمانية في فترة الحرب باعتبارها تستمد شرعيتها من كونها دولة الخلافة الإسلامية التي حافظت على دار الإسلام. وذبت عن حوزته منذ أن انتقلت مقاليد السلطة من الخلفاء العباسيين إلى سلاطين آل عثمان بموجب التفويض الشرعي الذي حصل عليه السلطان سليم الأول العثماني (918–927هـ/1512–1520م) من آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة المتوكل على الله (915–923هـ/1509–1517م) غداة فتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر في مطلع القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي45.

الثاني: حث المسلمين على ضرورة مقاومة الاحتلال الأجنبي لدار الإسلام. والانضواء تحت راية الجهاد المقدس التي أعلنها الخليفة (السلطان) العثماني ضد دول الحلفاء (إنكلترا. فرنسا. روسيا). وإثارة حماس المسلمين من خلال فضح نوايا تلك الدول ضد الإسلام وخليفته. وعدائها السافر المتمثل باحتلال أجزاء من دار الإسلام. ودق ناقوس الخطر للأمة الإسلامية. الذي ينذر بوقوع البقية الباقية منه تحت الاحتلال. فيما إذا تقاعس المسلمون عن نصرة الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا.

ويمثل كتاب إيقاظ الإخوان هذه السياسة خير تمثيل. وهو مؤلف من قسمين:

الأول: يناقش المؤلف في الأبواب (1–4) موضوعات نظرية تتصل بمعنى الملك وأصنافه ومعنى الخلافة. ثم يدخل في مناقشات فقهية حول اختلاف الأمة في حكم منصب الخلافة وشروطه. ووجوب طاعة الخليفة. ثم ينتقل لسرد تاريخي يتناول تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها. ودورها التاريخي بعد انتقال مقاليد حكم العالم الإسلامي إليها.

---

45 حول مسألة انتقال الخلافة الإسلامية للعثمانيين، وتنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله للسلطان سليم، انظر. ساطع المصري. البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، ط3، 1965م ص41–46. عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، 1980م، ج4 ص 318–1319. سيار الجميل بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 1997م، ص 115–125.

الثاني: يعالج فيه المؤلف علاقة الدول الاستعمارية، روسيا، فرنسا، إنكلترا، بالدولة العثمانية، ويخص إنكلترا بالجزء الأكبر من حديثه، ويستعرض في هذا الجزء العلاقة بين الطرفين، تاريخيا، ويستعرض سياستهم العدائية تجاه الدولة العثمانية، ثم ينتقل إلى شرح الظروف التي استدعت من الدولة العثمانية إعلان دخول الحرب، وحقيقة الدعوة إلى الجهاد. ثم يقدم ملخصا لنتائج المعارك، وينتهي إلى محاولة الإجابة عن السؤال الذي طرحه، وهو ما ينبغي على المسلمين سلوكه في هذه الحرب إزاء الدعوة للجهاد.46

وفي فاتحة الكتاب أشار المؤلف إلى الدافع الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب بقوله: "فلما كان خلاص المسلمين من تسلط الظالمين موقوفا على اجتماع كلمتهم، وهو لا يكون سهلا إلا بسعي من خليفتهم. وعرض للخلافة في هذا الزمان مانع، ليكون عن الوصول إلى ذلك المقصد أعظم مانع، سيما في زمان ساد فيه الجهال وتجرؤوا على القيل والقال. فأحببت أن أكشف الغطاء، وأنبه على محل الخطأ، ليعمل قاصد النجاح الخطى، ولا يقف وقفة الضب والقطا، مبادرة للمرض بالعلاج، وتعرضا للباطل دون الرواج، وتخليصا للأذهان من الخدش، وترك ميت الضلالة بلا نبش... قاصدا بذلك خدمة الدين، وتذكير المهتدين، وتنبيه الغافلين لدسائس المفسدين وسميته إيقاظ الأخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان".47

ويشير المؤلف في مقدمة الكتاب إلى منهجه بأنه لخص بعض فصول مقدمة كتاب العبر لابن خلدون (ت 808 هـ /1405م)، وأضاف لها إضافات من مصنفات السلف48، وفي مقدمتها كما يتضح من النصوص التي نقل عنها، كتاب ابن الأزرق (ت 896هـ /1490م) في كتابه بدائع في طبائع الملك، وأبو حامد الغزالي (ت 505 هـ /1111 م) في كتابه إحياء علوم الدين، وكتاب المواقف لعضد الدين الأيجي (ت 756 هـ /1355 م)، وكتاب الجوهرة للقدوري، والأحكام السلطانية للماوردي

46 الصفائحي، إيقاظ الأخوان، الفهرس (ص 155–156).
47 الصفائحي، (ن.م) فاتحة الكتاب، ص 2–3.
48 فاتحة الكتاب، ص 2.

(ت 450 هـ /1058 م)، وصحيح الإمام البخاري ، وكتاب التمهيد في الرد على المعطلة والجهمية لأبي بكر الباقلاني (ت 403 هـ /1013 م)، والعقد الفريد لابن عبد ربه (ت 328 هـ /939 م)، ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري (ت 330هـ /941م) إلى جانب مقالات رشيد رضا في مجلة المنار (م14، ج3، ت 29 ربيع الأول 1329هـ /1911م) وأما في الشق التاريخي الذي يستعرض فيه تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها بالانكليز، فلا يذكر مصادره، إلا إشارات هنا وهناك لمقالات نشرت في صحف، الطان (Le Temps) والغازيت دي لوزان، وديلي نيوز (Daily News)، وصحيفتي الزهرة التونسية، والمؤيد المصرية، في معرض الاستشهاد بها أو الرد عليها.

أ-إشكالية العلاقة بين السلطنة والخلافة :

يستفتح الصفائحي حديثه عن الخلافة والملك انطلاقا من المقولات الخلدونية حول ضرورة الاجتماع البشري، ويقسم المجتمع إلى بادية وحضر، وحاجة كل منهما إلى الآخر، ليصل إلى النتيجة التي وصل إليها ابن خلدون من قبل وهي ضرورة الملك للحفاظ على ذلك الاجتماع الذي لا يتم بدونه.[49] وبه ينقاد الناس وتجتمع الكلمة على الألفة والتناصر والتعاون عند الضرورة.

وينقسم الملك عند الصفائحي إلى ثلاثة أنواع وهو تقسيم مطابق إلى حد بعيد لتقسيم ابن خلدون وابن الأزرق:

1- الملك الدنيوي: (ملك القهر) الذي ينقاد فيه الناس قهرا، تبعا للهوى والشهوة.

2- الملك السياسي: وهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار، وينقاد الناس فيه إلى قوانين سياسية، وهي قوانين تخضع لنظر العقل وتستند إلى التجارب وحكم العادة لا للبراهين، وهو معرض للتحاسد والهوى الشخصي، ويترتب عليه بث الفرقة والاختلاف بين صفوف الأمة.

---

[49] ن.م. ص 4-9.

3- الملك الديني (الخلافة) وهو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والأخروية، والأمور الدنيوية هنا مقترنة بالأمور الأخروية عند صاحب الشرع. وتتعمق من خلال حفظ الأحكام الشرعية ومراقبة قيام البشر بالشعائر الدينية من قبل الخليفة (السلطان) ونوابه كالقاضي، فهو الذي يتصدى للبدع ويقمع المفسدين بحيث تتحقق كمحصلة لذلك استقامة الدين والدنيا.50

والخلافة واجبة شرعا وعقلا، ويستعرض مقولات الإمام الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين حول اقتران الشريعة بالعدل، ولا يمكن تحقق العدالة إلا بالسلطان المطاع الذي تنتظم به الأمور الدنيوية والأخروية. " فالدين لا يستقيم إلا بالدنيا. والدنيا مزرعة الآخرة. والدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع"، ولا يتم الملك إلا بالسلطان المطاع.51

ونصب الإمام واجب، والإمامة من الفروع لا من مسائل الاعتقاد، ومعنى هذا إنكار عصمة الأئمة، والوجوب سمعي لا عقلي، لأنه لا يجوز بقاء الناس بلا إمام تأسيسا بما فعله الصدر الأول من الصحابة بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وسلم). وشروط نصب الإمام خمسة: أربعة متفق عليها (العلم، العدالة، الكفاية، سلامة الحواس والأعضاء). والشرط الخامس مختلف فيه وهو النسب القرشي.52

وتتضح الضرورات العملية، وما انتهى إليه التطور التاريخي في علاقة السلاطين بالخلفاء ووعي الصفائحي الفقيه لإشكالية السلطنة، بدءا من نشأة منصب السلطان باستيلاء السلطان السلجوقي طغرلبك (429-455هـ /1037-1063م) على بغداد سنة 447هـ /1055م، مرورا بسلطنة الأيوبيين والمماليك انتهاء بسلاطين عصره العثمانيين، وما انتهت إليه آراء الفقهاء في تبرير

50 ن.م. ص 10-12.
51 ن.م. ص 12-14.
52 ن.م. ص 16-18.

سلطنة صاحب الشوكة (الأمير، السلطان)، وممارسة مهام السلطة الدنيوية، نيابة عن الخليفة (المحجور عليه) وبتفويض شرعي (شكلي) منه، لتصبح سلطنة هذا المتغلب مقبولة، ومنسجمة مع أحكام الشريعة، وذلك حفاظا على وحدة الأمة، ونبذ الفتنة، ويتضح هذا في تنظير الماوردي لإمارة الاستيلاء (الأمير البويهي المستبد على الخليفة)، مرورا بالإمام الجويني (ت 478هـ /1085م)، والغزالي في تنظيرهم للسلطان صاحب الشوكة في العصر السلجوقي، انتهاء بابن تيمية (ت 728هـ /1327م)، وابن جماعة (ت 733هـ /1332م) وابن خلدون الذين عاصروا سلاطين المماليك في القاهرة، وجلال الدين الدواني (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)، والفقيه الحنفي إبراهيم جلبي (ت 1549م)، وفقهاء الأحناف المتأخرين الذين أعطوا السلطنة مشروعيتها التاريخية في العهد العثماني53

ولعل القضية الأكثر أهمية التي يسهب الصفائحي في مناقشتها هنا ضمن هذا السياق والتي يلمس منها صدى تنظير الفقهاء منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، هي قضية النسب القرشي54، ولكن الصفائحي هنا كفقيه ينتمي للمذهب الحنفي مذهب الدولة العثمانية الرسمي، يناقش هذا الجانب لا من باب مناقشة قوالب فكرية جاهزة، كما نرى في مصنفات الفقهاء الذين كتبوا في فقه السياسة قبله، بل ينطلق من منطلقات جديدة توائم عصره لأهمية ذلك في مشروعية دفاعه عن خلافة سلاطين عصره العثمانيين الذي انبرى للدفاع عنهم، وإقناع

53 لتفاصيل أوفى ، انظر : أرنولد، توماس. الخلافة، ترجمة جميل معلي، دار اليقظة العربية، دمشق، 1946م. جب، هاملتون. النظرية السنية في الخلافة، ضمن دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1974م. الدوري، عبد العزيز. التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1984م. وله أيضا: الديموقراطية في فلسفة الحكم العربي، مجلة المستقبل العربي، ع9، 1979، ص 60–70. لاووست، هنري. نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع. ترجمة محمد عبد العظيم الديب، دار الأنصار، القاهرة، 1977م. وانظر لتفاصيل أوفى عن الفقهاء وآرائهم في الخلافة والسلطنة : الجالودي، عليان. تطور مفهوم السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، كانون أول ، 1997م، ص 146–198.

54 الصفائحي ، إيقاظ الأخوان.

الأمة الإسلامية بأن دولة الخلافة ما زالت قائمة تحقيقا للهدف الذي ينشده، وهو تمتين ارتباطهم بها، والانتماء لدعوة الجهاد التي يروج لها الاتحاديون تحت ستار الخليفة (السلطان) العثماني.

ويرى الصفائحي أن اشتراط القرشية في الخلافة وارد لإجماع الصحابة عليه يوم السقيفة 55، إلا أنه برأيه مشروط بالعدالة (الأئمة من قريش إذا ما حكموا فعدلوا)،56وعندما ضعفت عصبية قريش، وتغلب عليهم الأعاجم، واستبدوا بالحل والعقد دون الخلفاء، أسقط الفقهاء هذا الشرط باعتبار الشوكة في غيرهم.57 والكفاية (حالة الضعف التي انتهى إليها الخلفاء العباسيون في عصور تسلط الأعاجم واستبدادهم على الخلفاء).58، واشتراط القرشية برأيه نابع من التجربة التاريخية للأمة، وتوالي الخلافة في قريش (راشدون، أمويون، عباسيون)، وهو بهذا ينفي عنها سمة الوراثة المباشرة59، وبعد استحضار ما يتكئ عليه في دعم رأيه هنا من أحاديث نبوية والأخبار المتصلة بالموالي من غير العرب60، ينتهي إلى القول إن الخلفاء (السلاطين) من العجم (الأتراك) هم من قريش ولاء وحلفا لأنهم المتناصرون على إعلاء كلمة الله تعالى. ولم تكن بينهم وبين العرب دعوة الجاهلية وهي (الانتصار للقومية) - هكذا يسميها هو-، فالعرب والترك يقفون في صف واحد جنبا لجنب ويقاتلون عدوهم، ولا يستغيث أحدهم بقومه على الآخرين.61 وهنا يقصد بالطبع المسلمين والعرب الذين يناصرون الدول الأوروبية (إنكلترا وفرنسا) المعاديتين للدولة العثمانية، ويستنهض مشاعر البقية الباقية منهم للانضواء تحت راية الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا في الحرب الكونية الأولى.

---

55 ن.م. ص 18-19.
56 ن.م. ص 19.
57 ن.م. ص 21.
58 ن.م. ص 25.
59 ن.م. ص 26.
60 ن.م. ص 26-28.
61 ن.م. ص 28-29.

ووحدة السلطنة المتمثلة بوحدة الإمام أساسية. ولا يقبل بتعدد الأئمة مطلقا62. وهو بهذا يخالف ما انتهى إليه الفكر السياسي السني منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. بقبول التعدد. وهي قضية خطيرة يحاول الصفائحي أن ينفذ منها إلى واقع العالم الإسلامي عشية قيام الحرب العالمية الأولى. وهو واقع مفكك. مجزأ والسواد الأعظم خاضع فعلا للاستعمار الإنكليزي (مصر، السودان. سواحل الخليج والجنوب العربي. الهند. إيران). والفرنسي (المغرب العربي). والإيطالي (طرابلس الغرب). وتستعد الدول الاستعمارية للإجهاز على الجزء المتبقي (بلاد الشام. العراق. جزيرة العرب) ريثما يتم تصفية الرجل المريض (الدولة العثمانية) واقتسام الغنيمة. والصفائحي ولا شك كان حاضرا بذهنه - وهو المارس للسياسة- الدعوة إلى اللامركزية الإدارية. وبعض الدعاوي الاستقلالية في بلاد الشام والعراق. التي بدأت ملامحها تتضح منذ استيلاء الاتحاديين على السلطة سنة 1908م. وعزل عبد الحميد الثاني عام 1909م. ونستبعد بكل الأحوال أن يكون المقصود بذلك الاتصالات التي تمت بين الشريف حسين بن علي في الحجاز والإنجليز. لسبب بسيط. وهي أن هذه الاتصالات تالية لتأليف الصفائحي لكتابه هذا.

إن تأكيد الصفائحي على وحدة السلطة المتمثلة بالخلافة العثمانية يمكن أن يفسر بطموحه إلى توحيد مشاعر الأمة الإسلامية (الشعوب الإسلامية) حول رابطة الخلافة الإسلامية استجابة لمشروع الجهاد المقدس الذي دعت إليه الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا. وترويجا لفكرة الجامعة الإسلامية وتقوية للتضامن الإسلامي والاتحاد في ظل دولة الخلافة لتجاوز حالة الضعف التي انتهى إليها العالم الإسلامي آنذاك. والوقوف في وجه أطماع الدول الاستعمارية. وربما يدعم باتجاه هذه الفرضية استحضاره الشواهد من القرآن الكريم. والحديث الشريف.

62 ن.م. ص 35.

وأقوال الفقهاء المتصلة بالبغاة ودعاة الفتنة. والخروج على طاعة الإمام. ويؤكد وجوب طاعة الإمام المنصوص عليه من أهل الحل والعقد (رغم أنه لا يحدد هويتهم. وطبيعتهم في عصره)63.

ولا يجيز الصفائحي خلع طاعة الإمام. ويعود إلى تلخيص ما انتهى إليه فقهاء أهل السنة. ويدخل في مناقشات نظرية حول. إذا انعزل الإمام بنفسه. وينتهي إلى ما انتهى إليه سلفه من الفقهاء بقبول خلع الإمام شريطة أن لا يؤدي ذلك إلى حدوث فتنة64. وهو مع رفضه القاطع القبول بواقع تعدد الأئمة. إلا أنه لا ينسى واقع التجزئة. ودعاوى اللامركزية التي تطرح بقوة في عصره. ويقبل بتسوية من نوع معين. وهي تسوية غير مسبوقة في الفكر السياسي السني (وهنا تكمن ربما أصالة أفكاره). وهي أن يباشر الإمام بنفسه أو عن طريق وكلائه. فينظر الخليفة (السلطان) للحكام القائمين على رأس السلطة في العالم الإسلامي في عصره على أنهم أمراء. ويجيز لهم النظر في المصالح الخاصة بنواحيهم (دولهم) "لأنهم أدرى بها وبإجرائها على عادات أهلها". وللخليفة (السلطان العثماني) النظر في الإمارة العامة.65 إذن ينتهي الصفائحي لقبول الصيغة اللامركزية لإدارة دار الإسلام. وهي صيغة غير مقبولة لدى الطورانيين الأتراك (الاتحاديين) على الأقل حتى دخول الدولة العثمانية معترك الحرب العالمية الأولى. لأن نهجهم في الإدارة قائم على المركزية وربط الولايات التي تدور في فلك الدولة ربطا محكما بالمركز (العاصمة). و لوالي عند الصفائحي له حق إدارة الشؤون الداخلية. أما قضايا الأمن والعلاقات الخارجية للإمارة مع مجاوريها من الحكومات فتكون بيد الإمام. "وخلاصته أن له النظر في اجتماع كلمة المسلمين. وبدونه لا يجتمع الأمراء. وليس المراد أنه يتصرف بواسطة الولاة والقضاة في تلك البلاد الشاسعة - لأنه لا قدرة لخليفة واحد على ذلك- وحينئذ نكون قد عملنا بمقتضى الحديث الشريف (طاعة أولي الأمر) ولم نرتكب التعدد المنهي

63 ن.م. ص 38-39.
64 ن.م. ص 38-40.
65 ن.م. ص 41.

عنه والموجب لفرقة الكلمة وإنما تعدد أمراء النواحي؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، ... وأما الخليفة فلا يكون إلا واحدا. وتصرفه في العموم على ما بينا. وما لا يدرك كله لا يترك جله، إذ بدونه لا يتم الاجتماع والتناصر حسب المطلوب الشرعي وبتحميله التصرف في الجميع لا يمكن له ذلك".66

ويختم الصفائحي حديثه في هذا الفصل بالحديث عن التلازم بين السلطان والدين، وأهمية الدين في جمع الكلمة67، وهنا يعود للتأكيد على وجوب طاعة الناس للإمام، لأنه مكلف بإجراء أحكام الشرع، وطاعته مقرونة بطاعة الله تعالى. لأنه مكلف منه سبحانه وتعالى بتنفيذ أحكام الشرع.

والطاعة هذه – كما هي عند سلسلة الفقهاء الذين سبقوه– مقترنة بعدم الأمر بالمعصية، وهنا يصبح الفقيه مرشدا للسلطان يمارس دوره الوعظي. ويحث الصفائحي سلطان زمانه على الالتزام بالحدود التي رسمتها الشريعة. حتى لا يفسد سلطانه، وحتى لا يفرق كلمة الأمة. فينفتح بذلك الباب ليطمع بها الأعداء المتربصون بها من الخارج. وأن يسعى جاهدا للحفاظ على وحدة الأمة ونبذ الفرقة "فسلطان المسلمين هو من يسوسهم بجمع كلمتهم، وذلك بأن يمنع من يدعو إلى خلاف الدين، ومن يعمل بخلافه أيضا. ويحرض على إقامته كالأمر بالجهاد، وكف اليد العادية بظلم الناس بعضهم في الأموال والأعراض والدماء والفروج. وقمع أهل البدع والضلال الناشرين للأباطيل بين طبقات الجهال خشية إفضاء أمره إلى الانحلال..."68.

ب–الدولة العثمانية حارسة الإسلام وأهله:

يناقش الصفائحي تاريخ الدولة العثمانية منذ تأسيسها وحتى عصره، ويفصل في الحديث عن شرعيتها من زاويتين:

---

66 ن.م. ص 42.
67 ن.م. ص 42–56.
68 ن.م. ص 51.

الأولى: النشأة السلمية للدولة. وأن تأسيسها تم بمنحة ومكافأة من السلطان السلجوقي علاء الدين وهبها للأمير العثماني ارطغرل وقبيلته، مقابل العون الذي أمده به ضد أعداء دولته، وتستند شرعيتها على التفويض الشرعي من السلاجقة، والذين فوضهم إياه الخلفاء العباسيون من قبل. وهي بهذا على حد قوله تنفرد عن كل دول الإسلام، وسلاطين الأرض جميعا. "فلا يوجد ملك ولا سلطان إلا وقد زاحم من قبله بالوثوب والقيام والقتل إلا هذه الدولة فإن سلاطينها لم يجردوا سيفا لقتال أحد من أهل الإسلام في مبدء أمرهم، ولم يؤسسوا ملكهم على أنقاض دولة إسلامية أخرى، ولم يغتصبوا السلطنة، بل كانت من السلجوقية الذين هم بعهد من خلفاء بني العباس..."[69]

الثانية: الدولة العثمانية دولة حدودية مجاهدة، قامت على حساب دار الكفر، ووسعت رقعة دار الإسلام، وأضافت لها أراضي واسعة لم تكن منها في السابق، ونشرت الإسلام في بقاع جديدة لم يصلها من قبل، إلى جانب أنهم ورثوا عن أسلافهم المماليك حماية دار الإسلام، بما فيها الحرمان الشريفان[70]. وأن آخر الخلفاء العباسيين في مصر عندما رأى كفاية السلطان سليم واقتداره لحفظها تنازل له عن الخلافة وسلمه الآثار الشريفة النبوية – وهي العلم والسيف والبردة– وصار كل سلطان عثماني أمير للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين، من غير أن يطلبوها فضلا عن الدفاع عنها فتشرفوا بقبول ذلك، ورضي المسلمون منهم بما تصرفوا فيها، ولذا لم ينازعهم من المسلمين في الخلافة منذ ذلك التاريخ إلى الآن أحد.[71]

ويؤكد الصفائحي أن السلاطين العثمانيين أحسنوا القيام بمهام الخلافة، وبرهنوا على كفايتهم عبر تاريخهم بحماية البلاد الإسلامية، ووسعوا ملكها بالفتوحات في بلاد البلقان

---

69 ن.م. ص 58.
70 ن.م. ص 61.
71 ن.م. ص 62.

والبحر الأبيض المتوسط. وتصدت دولتهم لأطماع الدول الأوروبية ودسائسها.72 وحتى يبرهن على صدق ما يقول يستعرض علاقة الدولة العثمانية، ومعاهداتها مع كل من النمسا وفرنسا وإنكلترا وروسيا، والأحلاف الاستعمارية بين هذه الدول ضد الدولة العثمانية.73

ج- إنكلترا الخصم اللدود للدولة العثمانية :

واللافت للنظر في معالجة الصفائحي لعلائق الدول الاستعمارية بالدولة العثمانية هو تحليله الواعي لأطماع كل منها والدوافع الكامنة وراء هذه الأطماع. فالدافع العدواني لروسيا تجاه الدولة العثمانية ومحاربتها لها لا يتأتى برأيه من منطلق حماية حدودها، وإنما يتجلى بالرغبة في امتلاك الدنيا حسب وصية القيصر بطرس الأكبر، والوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط. وتعصبها الذي تبديه تجاه المسيحيين، ليس من باب عدائها للإسلام والمسلمين بمقدار ما هو شعار ترفعه وتهدف من ورائه إلى إضعاف الدولة العثمانية التي تقف في وجه هذه الأطماع وتحول دون قصدها في الوصول إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط. يرى الصفائحي إن الحل في إضعافها "هو العمل على تقسيمها – أي روسيا- على وجه يؤخر عملها إلى زمن بعيد .... ومراقبتها إلى حيث يحين ذلك بعين لا تنام ..."74.

وأما فرنسا فهو يرى أنها دولة منيت بالغرور، ولا مبرر لسياستها تلك تجاه الدولة العثمانية وإنما "تساق لإتمام غرض غيرها. وإن كان لها غرض فلا تثبت عليه مع حالها من الطمع فيما في أيدي الناس" 75 والعدو الأكبر للأمة العثمانية برأيه هي إنكلترا، وعداء الإنجليز للدولة العثمانية كما يراه متأت من حرصها على البحث عن مستعمرات تعويضا لنقص مواردها الأولية في جزيرتها الأم. وبالتالي فهي في نهم دائم لتأمين احتياجات سكانها المتزايدة. فهم برأيه أبدوا قدرات عالية في تطوير الصناعة والتجارة. مما ترتب عليه تحصيل

72 ن.م. ص 62-63.
73 ن.م. ص 64-85.
74 ن.م. ص 81-83.
75 ن.م. ص 83.

برأيه أبدوا قدرات عالية في تطوير الصناعة والتجارة. مما ترتب عليه تحصيل أجور عالية. لهذا فهدفها الأساسي المحافظة على مستوى المعيشة الراقي لسكانها على حساب غيرها. وبالتالي فهي في سعي محموم للمحافظة على مستعمراتها القديمة. وتوسيعها. وبما أن جل سكان هذه المستعمرات من المسلمين. ولهم بطبيعة الحال ارتباط وتعلق قوي بدولة الخلافة. فإن إنكلترا جعلت همها الأول إضعاف دولة الخلافة. بتأمين طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند.76

ويستعرض الصفائحي تاريخ الصراع بين إنكلترا والدولة العثمانية. والمعاهدات والأحلاف بينها وبين الدولة العثمانية. وغيرها من الدول الأوروبية. ويفصل بشكل خاص في أحداث أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر وسعي إنكلترا المحموم للدفاع عن مصالحها في الشرق التي تعرضت للتهديد باحتلال نابليون بونابرت لمصر وبلاد الشام (1798–1801م). ثم بروز دولة محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية (1805–1840م) وقوته العسكرية المتزايدة.77

ولعل أبرز ما يميز هذا العرض وعي الصفائحي وقدرته على الربط بين الأحداث. وإيرادها ضمن تسلسلها الزمني. وتحليل مواقف الدول الاستعمارية السياسية. وخصوصا إنكلترا بأسلوب مختصر رشيق.

ويخلص الصفائحي إلى نتيجة مهمة وهي أن إنكلترا الأشد عداء من بين الدول الاستعمارية بالرغم مما تحاول أن تظهره من صداقة تجاه الدولة العثمانية. ويعود هذا برأيه إلى تخوفها من رابطة الولاء للخلافة والإسلام المتمثل بانتماء الشعوب المسلمة التي تتحكم إنكلترا بمقدراتها. ويعزز رأيه بما يقوله أحد الكتاب الإنكليز بقوله: "إننا نرى العالم الإسلامي ينهض لكلمة

76 ن.م. ص 83–85.
77ن.م. ص 85–100.

يسمعها من فم خليفة المسلمين، لأننا نعتقد أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يجمعهم قانون واحد وديانة واحدة.... فأمة مشتتة في أطراف الدنيا تجمعها كلمة واحدة هي من المدهشات بل من الغرائب".78

والجانب الدعائي المتمثل بالتنديد بسياسة الخلفاء تجاه الدولة العثمانية. ودعوة المسلمين للالتفاف حول دعوة الجهاد المقدس التي ينادي بها السلطان العثماني، واضح في النتائج التي انتهى إليها الصفائحي فنراه يكيل التهم لإنجلترا وسياستها للإسلام وخليفة المسلمين المتمثلة بترويج الإشاعات في أن العثمانيين لا حق لهم بالخلافة، وأن الحكومة العثمانية لا تحكم بالشرع79، ثم يعرض للأسباب التي دعت الدولة العثمانية لتتحالف مع ألمانيا، وتدخل الحرب إلى جانبها ضد الإنكليز وحلفائهم80 ويستنفر المسلمين جميعا للوقوف إلى جانب الخليفة ودولة الخلافة في حربها المقدسة تلك81، وعلى أمراء المسلمين المستقلين في شؤونهم المبادرة إلى إعلان الجهاد، فبلاد المسلمين واحدة ووطنهم مشترك بين جميعهم.82 ويحثهم على اجتماع الكلمة ووحدة الصف، وعلى أمراء المسلمين الخاضعين للدول الاستعمارية التعاضد، ونصرة إخوانهم، وطرد المستعمر الذي يستعبدهم ويذلهم.83 كما يحثهم على عدم الانضواء ضمن جيوش العدو على جبهات القتال، وعصيان أوامر قادتهم الإنكليز والفرنسيين.84

ويختم الصفائحي حديثه بالقول "... وهذه نصيحة دينية لا أخص بها أهل بلادي بل أنبه لها كل الإخوان من أهل الإيمان في سائر البلدان ".85

---

78 ن.م. ص 118.
79 ن.م. ص 122–123.
80 ن.م. ص 125–136.
81 ن.م. ص 137–138.
82 ن.م. ص 147.
83 ن.م. ص 149–151.
84 ن.م. ص 152–153.
85 ن.م. ص 154.